ساحر غرناطة

بقلم \ هبة اللكاوي

في مكان تسكنه الخضرة، وتتضوّع منه نسمات الفجر...يجاوره قصر تزينه النقوش ليكون واحة تأوي إليه النفوس فيهجرها الألم، لم أكن أتخيل بأعوامي الحادية عشر ربيعا أن لجنّة العريف سحرًا يضاهي ذلك السّحر الذي صنعتها الجدة لأجلي لأنعم بلؤلؤة الأندلس...غرناطة أمدتني بعصا سحرية.. أستطيع بها الطيران ومناصرة الحق، فأصل جمال غرناطة ذاك الذي يروي ثنايا روحي ويرزوني في أحلامي الخضراء، تلك كانت أمنية دفينة تتعطش إليها نفسي، لأنقذها من براثن مستعمر لئيم...باغت أصحاب الأرض فكان استسلامهم لما في نفوسهم من ضعف الهمم... تتناغم على خصلات شعري رياح جنّة العريف مع رياح قصر الحمراء، مرتع ملوك غرناطة القاطن بجوار تلك الحديقة الغناء...مشيت في ربوعهما، ورأيت الملك فريناندو رافعا رأسه في عجب على خيله، وقد تناطح مع

خيل الأمير أبي عبد الله محمد الثاني عشر، الذي طأطأ رأسه وكاد أن يقبل يده الأمير عبد الله لا داعي لذلك، أنت كنت حاكم غرناطة وبلهجة لا تخلو من السخرية والحسرة من حاله: لم أعد كذلك...إليك مفاتيح مدينتي وكلّما فيها لك

عجبت لذلك الذل الذي يهوي برؤوس كانت أسودًا... لم أستخدم عصاي فأنا موكلة من جدّتي...بمرة واحدة وذلك اللعين لا يستحق دخلت إلى ساحات قصر الحمراء، لأجد النّار تلتهم تراثا عمره قرون، لّكني لمحت التراب يعلوه فأيقنت أنّ أصحابها لم يعيروه اهتماما...فما عساه إذن أن يفيدهم تراث ناج من الحريق لا يتبعون حكمه ولن يستميتوا في الدفاع عنه...فالتزمت الصّمت وابتعلت أشواك الذل.. إنتابني الفضول لأشبع رغبة عيناي المشتاقة إلى سراديب القصر... وقفت أتحسّس ظلام الطريق إليها لأجدهم هناك يعذبون هؤلاء المسلمين المستبسلين في تمسكهم بنور الإسلام، شعلة غرناطة الذين لم يكن لهم سوى ذنب واحد، حكمهم ملك جبان، فقاد جبنه المسيرة، وتصدر مشهد الهزيمة...جلت ببصري لكنه اصطدم بأحد هؤلاء، وقد بلغ من العذاب أقصاه.....ملطخة دماؤه جسَدَه وممزقةً ملابسُه، كاشفةً عن عوراته.....

– هاه، ماذا قلت؟ فاغرين عن قسوة لا تحتملها أعمدة الرّوح

– سأكون مسيحيًّا...نادوني من اليوم جورج

رغم قلبي المّمزق لأجله، لم أستطع أن أوليه سحر عصاي، فأفضل أن أوليها لشيءٍ يبقى، والنفس البشرية لا تصمد على أيّة حال... طال البكاء قلبي، حتى وكأنّني أسمع نحيبه

يا الله...ألم يكن أوْلى بهؤلاء الذين رفعوا راية الهوان، أن يتفكروا بتلك المصائر المظلمة؟ ألم يكن أولى أن يحمل شارة الإسلام رجالٌ لهم من الشكيمة والعزيمة، أن يقولوا لا لطوفان بغيض؟ ... انطلقت أعدو في الهواء الحرّ لعلّي أدرك نسيم الحرية الذين سلبوه، لكنّي ويا للصّدمة التي كادت تفتكُ بروحي... وجدتهم يرفعون الصّليب ورايةُ الإسلام ملقاة على الأرض ... فوق أعلى أبراج غرناطة...ليُنظر إليها وكأنها نبذت الإسلام

واحتضنت الصليب يا إلهي...لم ينتابني الحزن؟...كيف لمدينة يشعّ منها نور السّلام قبل الإسلام أن تقع في براثن عدوٍّ غاشم، لا يعِ من الدّين المسيحي سوى الصليب؟كيف يرغمونهم قسرًا ودينهم ينشد السّلام؟

تحرّكت الدّماء في قلبي لتشخن روحي وجراحي، وانطلقت أعدو نحوهم قبل أن تُداس راية الإسلام، تلك الراية التي قادات شعوبا ونهضات... تشاحنت معهم، حتى سالت الدّماء من أنفي، وتورّم وجهي، لكنّي صمدت بيدين مرتخيتين وبنفس يتملّكها الحزن...رفعت راية الإسلام بأُصبع واحد، ثم قلت أمام تلك الجموع التي احتشدت لرؤية تلك الملحمة...وأمام الملوك الذين تساءلوا عن ماهيتي، وأمام مشرّدي الرّوح الذين ذاقوا ألوانًا من الذّل والهوان

غرناطة...حية...باقية...سالمة...مسلمة

تمت